الفصل العاشر

"عودة"

فرغت العائلة من تناول الطعام، وانتقلت إلى غرفة المعيشة يتناولون الفاكهة والمشروبات الساخنة، ثم استأذنَت جنّة وسارة ودلفتا إلى غرفة جنة، جلستا على الفراش حيث تستريح جنة، وتستمتع بالثرثرة قليلًا مع صديقتها؛ حيث ابتدرت:

- يعني هو الواحد لو ماحصلِتْلُوش مصيبة مايشوفكِيش؟!

- فال الله ولا فالك، أعمل إيه بس ما انتِ عارفة مالك وطلباتُه اللي مابتخلصش، عايز واحدة تمشي تلمّ وراه.

- ده حقيقي أنا عارفاه، ماشي يا ستي خليكي جنب سي مالك وانسيني كده.

طُرق الباب طرقتين؛ فأذنت جنّة بالدخول للطارق؛ ففتح الباب ليظهر منه شاب وسيم رافعًا أحد حاجبيه، ثم قال:

- كنت سامع اسمي، خير؟!

ضحكت سارة باضطراب قائلة:

- لا أبدًا، وبعدين هو مفيش غيرَك عشان نجيب في سيرته، هه!

حدق بها بخبث قائلًا:

- امم، بأمارة طلباته اللي مابتخلصش، ماشي ماشي.. لينا بيت يلمّنا.

شفقَ وجه سارة حياءً، وضحكت جنة؛ فاقترب منها قائلًا بنبرة حانية:

- طمنيني عليكي، عاملة إيه دلوقتي؟

أومأت جنة مطمئنة:

- أنا كويسة الحمد لله.

ربت بيده على رأسها، ثم قال:

- طب اسمعيني يا جنّة وبلاش عناد، خروجك الفترة الجاية ممكن يعملّك مشاكل، فلو سمحتِي تاخدي ريست كده شوية، على الأقل تستردّي قوة أعصابك، أوك؟

افترّ عن ثغرها ابتسامة تهكمية، ثم قالت:

- بابا اللي قالّك تكلمني في الموضوع ده، مش كده؟

مالك بحزم:

- آه كده، ولازم تسمعي الكلام يا جنّة، محدش عارف ممكن يحصل إيه، سواء من الشرطة واللي أكيد هيكونوا مراقبينك خطوة بخطوة، أو من الناس اللي اتلطّيتي معاهم بالغلط دول.

تساءلت جنة بخوف:

- قصدك إيه؟ إنهم ممكن يؤذوني؟

جلس قبالتها وربت على يدها قائلًا:

- محدش يقدر يمسّ شعرة منك، بس الاحتياط واجب.

- طب والجامعة؟

- أي حاجة ممكن تتحلّ، وسيبيها عليّا، المهم تبقِي في أمان.

هزت جنة رأسها موافقة؛ فقال:

- تمام، يلّا أنا هطلع أقعد مع عمي شوية وانتوا كمّلوا كلامكوا، بس طلّعوني من دماغكوا أحسن أشرَق وأفطس ولّا حاجة.

ضحكت جنة، بينما قالت سارة بلهفة:

- بعد الشر.

فرد مالك مداعبًا:

- بتخافي عليّا قوي يا بت.

ابتسمت سارة بخجل، بينما ضحكت جنة من قلبها، فَرِحة بوجودها وسط عائلتها يحيطونها بالرعاية والحب، ويرسمون البسمة على صفحة وجهها الشاحب بعدما كادت تفقد الأمل في لقائهم مرة أخرى، أو بالأحرى لم تكن تعرف للوقت نهاية، وكأن الزمن توقف بها في بؤرة مظلمة غير واضحة الملامح، إلا من نقطة بيضاء واحدة تمثلت أمامها حينما لاحت في الأفق صورة هشام، والذي كان يبثّ بقلبها بعض الاطمئنان متذكرة وعده لها بأن يساعدها على الخروج من تلك المحنة شريطة أن تكون صادقة معه، ثم طرق باب ذاكرتها ذلك الحديث بينه بين والدها في المشفى، والذي استشفّت منه أنه طمأن والديها عليها، بل ووعدهم برعايتها؛ فتساءلت لماذا لم يخبرها بهذا الأمر رغم أنه كان يدرك جيدًا خوفها عليهم، هل كان يشك بها فلم يرد طمأنتها لإجبارها بالاعتراف؟! لكنها لم تكن تعرف شيئًا على أي حال.

لفت انتباهها صوت طقطقة سارة أصابعها أمام عينيها قائلة:

- إيه روحتي فين؟

فقالت جنة بشرود:

- كنت بفكر في اللي حصل الأيام اللي فاتت، والظابط الغلس ده كمان مش عارفة مفكّر نفسه إيه، مغرور كده وعنده هسهس، شوية يعاملِك كويس ويجيبلك عصير ليمون، وبعدها يموتك من الرعب، مجنون، برج الجوزاء تلاقيه...

قاطعتها سارة:

- إيه؟! حيلك حيلك، وده إيه حكايته ده اللي شاغل عقلِك يا جميل؟!

رمقتها جنة باستخفاف قائلة:

- ماتبتدِيش يا سارة بالله عليكي، بقولك مش طايقاه.

ابتسمت سارة في نفسها، ثم أردفت:

- آه ما هو واضح إنك مش طايقاه، طب قوليلي هو كبير ولا شاب؟

صمتَت جنة برهة تحدق بصديقتها معترفة أنها لن تتركها وشأنها إلا بعدما تجيبها وتُرضي فضولها وكأنها عائدة من مغامرة طريفة، فردّت بهدوء:

- مش ههرب منِّك أنا عارفة، هو يا ستي شاب، شكله في بداية التلاتينات كده.

- امم طب وشكله إيه؟ اوصفيهولي.

تنهدت وراحت تُبحِر في أعماق ذاكرتها، وأسندت ظهرها إلى الوسادة تنظر إلى الأعلى، وبدأت تسهب في سردها عليها ما تذكرته:

- يعني هو كان شاب عادي.. طويل شوية وعريض وبشرته قمحية وشعره أسود، وعينيه.. عينيه غامقة بلون السماء بالليل، تحسّي إن فيها عمق.. عمق يخوّف، بس رموشه هه.. كانت أحلى ما فيه، تحسيها كأنها حصن على عينيه بتمنع أي حد يبص جواهم ويكتشف اللي فيهم، لدرجة إني كنت بشوف ضلّهم تحت عينيه.. شكلُه كله كان بيدّي إحساس بالقوة وإجبار اللي حواليه يخافوا منه.. والبدَل اللي كان بيلبسها شيك قوي، حتى وهو بيحقق معايا كان بيبقى جذاب قوي و...

قاطعتها سارة بابتسامة عريضة:

- هيييح وإيه كمان؟

اعتدلت جنة في جلستها محاولة إخفاء البسمة اللائحة على ثغرها؛ فضحكت سارة قائلة:

- طب قوليلي هو رتبته إيه؟

تذكّرت جنة ذلك الدرع بمكتبه بينما كان بين يديها، وقالت:

- رائد.. الرائد هشام العجمي.

سارة ببكَش: امم، لا اسم مميز ورتبة عَال العال.

قطبت جنة جبينها، وقالت بتجهم:

- يا بنتي هو انتِ مفيش في دماغك غير الحاجات دي؟!

ردت سارة بمرح:

- بهزر معاكي يا بيبي عشان تفكّي.. بس ده مايمنعش يعني إنى متأكدة من إعجابك بيه.

جنة باستنكار: معجبة بيه؟! بعد اللي عمله معايا.. انتِ هبلة؟

سارة:

- معلش ما هي بتبتدي كده، كنتي تعالي اقعدي مكاني وشوفي نفسك وانتِ بتحكي عليه.. وبعدين عمل إيه؟! الراجل كان هاريكِي عصير ليمون وجِه طمّن أهلك عليكي، ووعدهم إنه يطلعّك، أنهي ظابط بيعمل كده مع واحدة في وضعك المهبّب ده؟

حاولت جنة كبت تلك الفرحة التي تسلّلت إلى قلبها خفية، تزمّ قسماتها في ضحكة مختنقة؛ فارتأت أن الهروب هو الحل الأسلم، وطلبَت من سارة أن تتركها تنام قليلًا، وعلى حين غرّة ظهر أمام ناظري ذاكرتها ذلك المنام الذي رأته صباح ذلك اليوم؛ فانتصبت في جلستها وأمسكت بيد صديقتها صائحة:

- أنا حلمت بيه النهاردة.

*****

في جهاز الأمن الوطني:

كان هشام جالسًا في مكتبه، يدرس أبعاد القضية وما طرأ عليها من أحداث قد انتهى بأنها لا تفيد ولا تنفع.

عاد بجسده إلى ظهر الكرسي مطقطقًا عضلات ظهره، أسند رأسه بتلاقِي ذراعيه إلى الخلف، وأغمض عينيه طلبًا في الراحة قليلًا لاستعادة حيويته، وترتيب أفكاره في خلايا دماغه من جديد، حتى استحضر ذهنه صورة ذلك كبش الفداء منذ أن قبضَ عليها وحتى سلَّمها لوالديها، لكن.. تُرَى من كان ذلك الشخص؟ وكيف جرُءَ على لمس يديها، وهنا صاح لنفسه:

- أوباا!! لا اوقف كده يا عم هشام مش عايزين هبل، يكون زي ما يكون دي مجرد مشتبه فيها في قضية، مش من بقية عيلتك يعني.. وبعدين صلِّ على النبي كده انتَ لسه خاطب من مفيش أسبوع.

طرق ذهنه أن يتلفّت إلى لارا، ربما تطرد من ذهنه تلك الجنيّة التي تسلّطَت على فكره فتطرُق بابه بين الحين والآخر، الْتقَطَ هاتفه وضغط على اسم لارا ثم زر الاتصال، وانتظر حتى أتاه الرد:

- ألو.
- أيوَه يا لارا، ازّيك؟
- حلوة يا بيبي، وانتَ؟
- تمام، انتِ فين دلوقتي؟
- أنا؟!.. اشمعنى؟

- هو إيه اللي اشمعنى؟ بسألك تردّي.
- أنا في الجامعة.
- طيب أنا مروح دلوقتي، هعدّي عليكِي أخدِك.
- ١١.. بس أنا لسّه عندي محاضرة.

نظر في ساعته، ثم قال:

- محاضرة الساعة ٣؟!
- آه عادي، أنا بخلص ٤ ونص.
- طيب ماشي.
- أوك يا بيبي.
- سلام.
- باي.

أنهى هشام مكالمته، أخذ سترته والتقَطَ قداحته وهاتفه وعلبة سجائرة، وغادر مكتبه، بل والجهاز بأكمله.

استقل سيارته، وانطلق مغادرًا إلى بيته، متخذًا طريق ميدان لبنان، ذاك ما ندم عليه بعد أن علِقَ بالزحمة التي تعجّ بها الطرق فلم تترك له مجالًا للعودة واتخاذ مسارٍ آخر، توقّف بسيارته في إشارة مرورية يتأفّف سخطًا، حتى فتحت الإشارة وبدأت الأبواق تصدر ضوضاءها، وخاصة تلك السيارة خلفه، لم يرفع صاحبها يده عن مزمار سيارته؛ فأخرج هشام رأسه صائحًا بحنق: انتَ أهبل؟! إيه هتطِير فوق العربيات اللي قدّامي يعني؟!

لم يسمعه السائق على الأغلب، يبدو وكأنه كان منشغلًا مع رفاقه وصوت الأغاني، أو بالأحرى المهرجانات الشعبية يقرع آذانهم.

استشاط هشام غضبًا؛ فنزل من سيارته بهيئة لا تبشر خيرًا، واتجه إلى السيارة خلفه وجد سائقها ينظر إلى رفاقه بالمقعد الخلفي ضاغطًا على بوق سيارته غير منتبه لوجود هشام؛ ففتح هشام باب السيارة وباغت الشاب بإمساكه من تلابيبه، وفي غمضة عين كان يقف أمامه وجهًا لوجه؛ فصاح به الشاب:

- إيه يا عم انتَ؟ انت مجنون؟

كانت النيران تشتعل بمقلتَي هشام:

- مين ده اللى مجنون يا ابن...، انتَ مش مركّز في أم الطريق ونازل تزمير، انت حمار؟

- انتَ ازّاي تكلّمني كده يا حيوان؟ انت مفكّر نفسك مين؟

أخرج هشام مسدسه في لحظة انفعال قائلًا:

- هعرّفك أنا مين يا روح أمك....

في تلك اللحظة نزل من السيارة شابٌّ آخر لا ينبئ مظهره أنه أفضل من صاحبه؛ فقال:

- خلاص يا جدعان الموضوع مش مستاهل.

لم يكن هشام يسمعه؛ فكان نظره معلقًا على أنظار هلعة بداخل السيارة.. نعم في المقعد الخلفى.

-"لارا؟!"

أعاد هشام مسدسه إلى خلف بنطاله، وفتح باب السيارة الخلفي وجذبها منه، أخرجها بقوة وسحبها خلفه ضاغطًا على رسغها حتى أدخلها سيارته عنوة غير آبه لصيحات الشباب من خلفه، وانطلق حيث فتحَت الإشارة ثانية، قاد بسرعة جنونية والغضب يتجلّى على وجهه المُحمرّ؛ حيث أضرجت به الدماء مندفعة بسخاء، حتى توقف أمام منزل لارا محدثًا صريرًا عاليًا بمكابح السيارة، صمت هنيهة ثم قال:

- بصي بقى يا بنت... الناس، أنا ولا مغفّل ولا عاش اللي يستغفلني، فمش هتيجي حتة بتّ زيك تفكّر تقرطسني، فوقي لنفسك.. أنا الرائد هشام العجمي يا ماما، غلطتِي إني وثقت في واحدة زيك، انتِ ماتعرفيش واحدة غيرك كان زمانها بيتكتبلي فيها تقارير عن الهوا اللي بتتنفسه..

حاولت لارا الدفاع عن نفسها بمزيد من دموع التماسيح:

- يا هشام انتَ فاهم غلط صدّقني...

صرخ بها هشام؛ فانتفضت:

- اخرسي بقى، انتِ إيه؟! معجونة بمياة كدب؟!

ومن ثمَّ خلع الدبلة من يده وقذفها بوجهها قائلًا:

- كده تنسِي إن كان فيه بيننا حاجة من الأساس، وبيتنا طبعًا مفتوح في أي وقت، بس اللي ليكي فيه هما خالتك وبنت خالتك، غير كده ماشوفش

وشك تاني.. أصلًا لولاهم ماكُنتِش رحمتك ولا شفتي يوم عدل بعد النهاردة.

انهارت لارا بعد سماعها تلك الإهانات كلها؛ ففتحت السيارة ونزلت منها راكضة إلى بوابة منزلها، بينما غادر هشام مخلّفًا وراءه سحابة من الغضب والانفعال.

*****

دلفت لارا إلى منزلها، دخلَت مباشرة إلى غرفة والدتها والتي كانت تتحدث عبر الهاتف، وما إن شاهدت هيئة ابنتها الباكية قالت لمن تحادثها:

- طيب يا هبة، هكلّمك بعدين، سلام دلوقتي.

تطلّعَت إلى ابنتها، وتساءلت بلهفة:

- إيه يا بنتي مالِك؟ فيه إيه؟

- هشام يا ماما..

- ماله هشام؟ انطقي، حصل إيه بينكوا تاني؟

روَت لها لارا ما حدث بينهما؛ فشهقت والدتها قائلة بغضب:

- انتِ يا بنتي مش هتِعْقَلِي بقى؟! قولتلك تصرفاتك دي هتخرب عليكي وأهو حصل.. انسي بقى خلاص.

- لا خلاص إيه يا ماما؟! اتصرفي بليز.

- أتصرف يعني أعمل إيه؟! واحدة خطيبها شافها مع شلة شباب بايظة وكدبِت عليه قالتله إنها في محاضرة، ما عندُه حق يعمل أكتر من كده كمان.

- يا ماما أولًا دول صحابي، وكان معايا بنات وكنا مرتبين للخروجة دي من فترة، كنت هلغيها ازّاي بس؟!

قاطعتها والدتها بنفاد صبر: خلاص، خلّيهم ينفعوكي بقى.

نهضت باحتجاج تتوسلها:

- لا يا ماما أبوس إيدك، انتِ مش فاهمة جوازي من هشام يعنيلي قدّ إيه، ماشوفتيش صحباتي بقوا ازّاي بيعاملوني من ساعة ما عرفوا إننا اتخطبنا، يقولوا عليّا إيه لو عرفوا إننا فسخنا بالسرعة دي.. هشام بالنسبالى فرصة، فرصة إني أبقى لارا مدام الرائد هشام العجمي، وهبقى ضامنة مستوى حياتي الاجتماعي، وأنا مش هضيّع الفرصة دي يا ماما.

- هه! ما انتِ ضيعتيها واللي كان كان.

- لا يا ماما، أكيد لأ.

- تقصدي إيه؟

- أقصد إنك تكلمي خالتو وتعاتبيها على اللي هشام عملُه، وكام كلمة من عندك يخلوها تجبرُه إنه يرجعلي.

فكّرت فوزية قليلًا، ثم قالت:

- أمري لله.. بنتي بقى هعمل إيه! ناوليني التليفون.